﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

كيف فى اللغة للسؤال عن الحال . والحق سبحانه وتعالى أوردها فى هذه الآية الكريمة ليس بغرض الاستفهام ، ولكن لطلب تفسير أمر عجيب ما كان يجب أن يحدث . وبعد كل ما رواه الحق سبحانه وتعالى فى آيات سابقة من أدلة دامغة عن خلق السموات والأرض وخلق الناس .. أدلة لا يستطيع أحد أن ينكرها أو يخطئها .. فكيف بعد هذه الادلة الواضحة تكفرون بالله ؟ .. كفركم لاحجة لكم فيه ولا منطق .. والسؤال يكون مرة للتوبيخ .. كأن تقول لرجل كيف تسب أباك ؟ أو للتعجب من شيء قد فعله وما كان يجب ان يفعله .. وكلاهما متلاقيان . سواء كان القصد التوبيخ او التعجب فالقصد واحد .. فهذا ما كان يجب ان يصح منك . ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى بأدلة اخرى لا يستطيع أحد أن ينكرها او يكذب بها .. فيقول جل جلاله : « وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتكم » .

وهكذا ينتقل الكلام الى اصل الحياة والموت . فبعد ان بين الحق سبحانه وتعالى .. ماذا يفعل الكافرون والفاسقون والمنافقون من افساد فى الأرض .. وقطع لما أمر الله سبحانه وتعالى به أن يوصل .. صعد الجدل الى حديث عن الحياة والموت . وقوله تعالى « كنتم أمواتا فأحياكم » قضية لا تحتمل الجدل .. ربما استطاعوا المجادلة فى مسألة عدم اتباع المنهج ، أو قطع ما أمر الله به ان يوصل ..

ولكن قضية الحياة والموت لا يمكن لأحد أن يجادل فيها . فالله سبحانه وتعالى خلقنا من عدم .. ولم يدع أحد قط أنه خلق الناس أو خلق نفسه .. وعندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال للناس ان الذى خلقكم هو الله .. لم يستطع أحد أن يكذبه ولن يستطيع .. ذلك أننا كنا فعلا غير موجودين فى الدنيا .. والله سبحانه وتعالى هو الذى أوجدنا واعطانا الحياة ..

وقوله تعالى : « ثم يميتكم » . فان أحدا لايشك فى أنه سيموت . . الموت مقدر على الناس جميعا . . والخلق من العدم واقع بالدليل . . والموت واقع بالحس والمشاهدة . .

إن قضية الموت هى سبيلنا لمواجهة أى ملحد . . فإن قالوا إن العقل كاف لادارة الحياة . . وانه لا يوجد شىء اسمه غيب . . قلنا : الذى تحكم فى الخلق ايجادا ، هو الذى يتحكم فيه موتا . . والحياة الدنيا هى مرحلة بين قوسين . . القوس الأول هو أن الله يخلقنا ويوجدنا . . وتمضى رحلة الحياة الى القوس الثانى . . الذى تخمد فيه بشريتنا وتتوقف حياتنا وهو الموت . أى أننا فى رحلة الحياة من الله واليه . .

اذن فحركة الحياة الدنيا هى بداية من الله بالخلق ونهاية بالموت . .

إنهم عندما تحدثوا عن اطفال الانابيب . . وهى عملية لعلاج العقم أكثر من اى شىء آخر . . ولكنهم صوروها تصويرا جاهليا . . وكل ما يحدث أنهم يأخذون بويضة من رحم الأم التى يكون المهبل عندها مسدودا أو لا يسمح بالتلقيح الطبيعى . . يأخذون هذه البويضة من رحم الأم . . ويخصبونها بالحيوانات المنوية للزوج . . ثم يزرعونها فى رحم الأم .

إنهم أخذوا من خلق الله وهى بويضة الأم والحيوان المنوى من الرجل . . وكل ما يفعلونه هو عملية التلقيح ومع ذلك يسمونه اطفال الانابيب . . كأن الانبوبة يمكن ان تخلق طفلا !! والحقيقة غير ذلك . . فبويضة الأم ، والحيوان المنوى للرجل هما من خلق الله . . وهم لم يخلقوا شيئا . . أننا نقول لهم : اذا كنتم تملكون الموت والحياة فامنعوا انسانا واحدا أن يموت . . بدلا من انفاق ألوف الجنيهات فى معالجة عقم قد ينجح أو لا ينجح . . ابقوا واحدا على قيد الحياة . . ولن يستطيعوا . .

إن الموت أمر حسى مشاهد . . ولذلك فمن رحمة الله بالعقل البشرى بالنسبة للأحداث الغيبية أن الله سبحانه وتعالى قربها لنا بشىء مشاهد . . كيف ؟ . . عندما ينظر الانسان الى نفسه وهو حى . . لا يعرف كيف أحياه الله وكيف خلقه . . الله سبحانه وتعالى ذكر لنا غيب الخلق فى القرآن الكريم فقال جل جلاله أنه خلق الانسان من تراب ومن طين ومن حمأ مسنون ثم نفخ فيه من روحه . .

واقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴾

(من الآية ٥ سورة الحج)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾

(من الآية ١١ سورة الصافات)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة الحجر)

وقوله تعالى :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة ص)

فالحق تبارك وتعالى أخبرنا عن مرحلة فى الخلق لم نشهدها . . ولكن الموت شىء مشهود لنا جميعا . . ومادام مشهودا لنا ، يأتى الحق سبحانه وتعالى به كدليل على مراحل الخلق التى لم نشهدها . . فالموت نقض للحياة . . والحياة اخبرنا الله تبارك وتعالى بأطوارها . . ولكنها غيب لم نشهده . .

ولكن الذى خلق قال أنا خلقتك من تراب . . من طين. من حمأ مسنون. من صلصال كالفخار . . فالماء وضع على تراب فأصبح طينا . . والطين تركناه فتغير لونه وأصبح صلصالا . . الصلصال . . جف فأصبح حمأ مسنونا ، ثم نحته فى صورة انسان ونفخ الحق سبحانه وتعالى فيه الروح فأصبح بشرا . . ثم يأتى الموت وهو نقض للحياة . . ونقض كل شىء يأتى على عكس بنائه . .

بناء العمارة يبدأ من اسفل الى أعلى . . وهدمها يبدأ من اعلى الى أسفل . . ولذلك فان آخر مرحلة من رحلة ما . . هى أول خطوة فى طريق العودة . . فاذا كنت مسافرا الى الاسكندرية . . فأول مكان فى طريق العودة هو آخر مكان وصلت اليه .

أول شىء يخرج من الجسد هو الروح وهو آخر ما دخل فيه . . ثم بعد ذلك يتصلب الجسد ويصبح كالحمأ المسنون . . ثم يتعفن فيصبح كالصلصال . . ثم يتبخر الماء الذى فيه فيعود ترابا . . وهكذا يكون الموت نقض صورة الحياة . . متفقا مع المراحل التى بينها لنا الحق سبحانه وتعالى . .

وقوله تعالى : « ثم اليه ترجعون » . . أى أن الله تبارك وتعالى يبعثكم ليحاسبكم . . لقد حاول الكفار والملحدون واصحاب الفلسفة المادية ان ينكروا قضية البعث . . وهم فى هذا لم يأتوا بجديد . . بل جاءوا بالكلام نفسه الذى قاله أصحاب الجاهلية الأولى . . واقرأ قوله تعالى عما يقوله اصحاب الجاهلية الأولى :

﴿ وَقَالُواْ مَاهِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الجاثية)

وامنية الكافر والمسرف على نفسه . . الا يكون هناك بعث أو حساب . . والذين يتعجبون من ذلك نقول لهم : ان الله سبحانه وتعالى الذى أوجدكم من عدم

يستطيع أن يعيدكم وقد كنتم موجودين .. يقول جل جلاله :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الروم)

فإيجاد ما كان موجودا أسهل من الايجاد من عدم على غير مثال موجود .. والله سبحانه وتعالى يرد على الكفار فيقول سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة يس)

وهكذا فإن البعث أهون على الله من بداية الخلق .. وكل شيء مكتوب عند الله سبحانه وتعالى فى كتاب مبين .. وما أخذته الارض من جسد الانسان ترده يوم القيامة .. ليعود من جديد .

وخلق السموات والأرض أكبر من خلق الانسان .. واقرأ قوله وتعالى :

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

(سورة غافر)

وقول الله سبحانه وتعالى : « ثم اليه ترجعون » .. هو اطمئنان لمن آمن .. ومادمنا اليه نرجع ومنه بدأنا .. فالحياة بدايتها من الله ونهايتها الى الله .. فلنجعلها هى نفسها لله .. ولابد أن نلتفت الى ان الله تبارك وتعالى أخفى عنا الموت زمانا ومكانا وسببا وعمرا .. لم يخفه ليحجبه ، وانما أخفاه حتى نتوقعه فى كل لحظة .. وهذا اعلام واسع بالموت حتى يسرع الناس الى العمل الصالح .. والى المثوبة.لأنه

لا يوجد عمر متيقن فى الدنيا . . فلا الصغير آمن على عمره . . ولا الشاب آمن على عمره . . ولا الكهل آمن على عمره . . ولذلك يجب أن يسارع كل منا فى الخيرات . . حتى لا يفاجئه الموت . . فيموت وهو عاص . .

ونلاحظ أن قصة الحياة جاء الله بها فى آية واحدة . والرجوع الى الله ـ وهو يقين بالنسبة للمؤمنين ـ يلزمهم بالمنهج ، فيعيشون من حلال . والتزامهم هذا هو الذى يقودهم الى طريق الجنة . ويطمئنهم على اولادهم بعد أن يرحل الآباء من الدنيا .

فعمل الرجل الصالح ينعكس على أولاده من بعده . واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

اذن فصاحب الالتزام بالمنهج ، يطمئن الى لقاء ربه ويطمئن الى جزائه ، والذى لا يؤمن بالآخرة أخذ من الله الحياة فأفناها فيما لا ينفع . ثم بعد ذلك لا يجد شيئا الا الحساب والنار . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

أى أن الكافر سيفاجأ فى الآخرة بالله الذى لم يكن فى باله انه سيحاسبه على ما فعل . . وقوله تعالى « واليه ترجعون » تقرأ قراءتان . بضمة على التاء . ومرة بفتحة على التاء . الاولى معناها . أننا نُجْبَرُ على الرجوع . فلا يكون الرجوع الى الله تعالى بإرادتنا ، وهذا ينطبق على الكفار الذين يتمنون عدم الرجوع الى الله . أما الثانية « تَرجعون » فهذه فيها ارادة . وهى تنطبق على المؤمنين لأنهم يتمنون الرجوع الى الله .